عندما يتكلم الفيلسوف

د. زكى نجيب محمود

حاورته

فاطمة بركه



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠١

مقدمة

هذا الكتاب الذى فاجأتنى به الكاتبة القديرة فاطمة بركة دليل على أنها فطنت إلى مصدر ثرى من مصادر التراث الفكرى للمفكر الراحل زكى نجيب محمود. إنه تلك الجلسات الثقافية التى كانت تنعقد فى بيته مع زملائه

ومع أصدقائه ومع طلابه ومع غيرهم من الشباب وكانت تدور الأحاديث فيها حول موضوعات ثقافية تتصل بالفلسفة وبالأدب وبالفن وبالنقد وغير ذلك. وكان كل من يحضر هذه الجلسات يتمنى لو تم تسجيلها ثم نشرها. وكنت أرى أنه لو حدث ذلك فسوف تمتلىء به مجلدات.

لقد قدمت مؤلفه هذا الكتاب نموذجا لما كان يدور فى هذه الجلسات، وعرضت فيه موضوعات أثارتها معه تتصل بحياة الشباب وطموحهم وتعجلهم، وبالطريق إلى تنمية الموهبه الأدبية، وأهمية القراءة وإجادة اللغة.

وعن الفلسفة ماهى. وقد استطاعت أن تكشف فى حوارها معه عن الفلسفة ماكان يتميز به المفكر الراحل من قدرة فذة على التحليل والتبسيط. كما عرضت رأيه فى أزمة الثقافة وأسبابها وعلاجها. وكل هذه الموضوعات لازالت إلى يومنا هذا تحتاج إلى تدبر وعلاج.

قالت المؤلفة فى نغمة اعتذار وهى تقدم لى مشروع هذا الكتاب: «لقد تأخرت فى إعداده»، قلت لها كلا لقد حملته طوال هذه السنوات فى وعيك، ثم قررت، لاعتزازك به، أن تخرجيه فى صورة كتاب يشاركك الآخرون فى ترديد

مـاتضـمنه من أحـاديث فـسـاهـمت بذلـك فى استـمـرارية إحـيـاء أفـكاره والتـمـعن فى كلمـاتـه أليس هـذا هـو طـريق الخلود؟

منيرة حلمى

الدكتور.. وأنا

تعـرفت إلى الدكـتـور زكى نجيب مـحـمـود المفكر والفيلسوف الكبـيـر عن قـرب.. بهـرتنى شـخـصيتـه.. وتجـاوبت مع أفكاره.. وعـشـقت قلمه.

كنت مازلت طالبة صغيرة بالسنة الثانية فى كلية الآداب بجامعة عين شمس وطلب منى استاذى الجليل الدكتور عبده بدوى - وكان فى ذلك الوقت يتولى رئاسة تحرير مجلة «الشعر» - إن أساهم فى تحرير المجلة باجراء الحوارات الصحفية مع المفكرين والأدباء والشعراء وترك لى حرية اختيار الشخصيات التى أحاورها.

فى ذلك الوقت.. كنت فى شوق شديد للتعرف على الدكتور زكى نجيب محمود، بعد أن قرأت له أغلب أعماله وكانت فرصة قررت أن اقتنصها فاتصلت به تليفونيا وقلبى يرتجف

قلقا وخوفا، وكم كانت مفاجأة عندما وجدته يرحب بى ويحدد لى موعدا.

وفى الموعد المحدد كنت أقف على باب شقته الجميلة بإحدى العمارات الشاهقة على نيل مصر الخالد.. واستقبلتنى بترحاب شديد بعث فى نفسى الثقة السيدة الفاضلة زوجته الدكتورة منيرة حلمى «استاذة علم النفس.. وبعد دقائق كنت أقف أمام المفكر العملاق الذى زاد تواضعه الشديد من تقديرى له وانبهارى بشخصيته وتعامل معى وكأننى صحفية معروفة متمرسة، ولست مجرد طالبة

بأولى سنوات الدراسة الجامعية وبعد أن انتهى الحوار، قال لى: «يمكنك أن تتصلى بى فى أى وقت.. وسيكون لك ماتريدين دائمًا».

أشعرنى ذلك اللقاء بسعادة غامرة وشعرت بأن شريط التسجيل «الكاسيت» الذى سجلت عليه اللقاء يمثل لى ثروة طائلة، ومازلت إلى الآن أشعر نفس الشعور.. وزادنى سعادة ثناء استاذى الدكتور عبده بدوى على الحوار الذى اجريته وتنبأ لى بأننى سأكون صحفية ناجحة.

وكان ذلك اللقاء سببا فى تغيير مسار حياتى فبعد أقل من عام كنت أقدم على تجربة

جديدة.. لقد أصبحت صحفية «محترفة» فى جريدة «أخبار اليوم» أكبر الصحف فى «الشرق الأوسط» وبدأت عملى فى الصفحة الأدبية بالجريدة، وكانت أنجح الصفحات الأدبية فى الصحف والمجلات المصرية.. وقمت بإجراء سلسلة تحقيقات حول قضية الأدباء الشبان وكانت من أهم القضايا الأدبية المثارة فى تلك الفترة - وخصصت حلقة كاملة من تلك السلسلة للدكتور زكى نجيب محمود.. واحدثت التحقيقات ضجة كبيرة فقد تحدث الدكتور بصراحة شديدة، وانتقد الاوضاع الأدبية

بشدة.. وذكر البعض ممن يتحملون المسئولية وبإسمائهم..

ودام اتصالى بالدكتور زكى نجيب محمود سنوات وسنوات.. كنت احيانا ازوره فى بيته، وإحيانا أخرى كثيرة اتصل به تليفونيا.. وبالرغم من فارق السن والثقافة الكبيرين فإنه لم يبخل على ابدا بالنصح والمشورة.. ولم يبخل على بالحوارات الصحفية التى اصبحت تمثل لى ثروة كبيرة وجدت إنه من غير اللائق أن استاثر بها وحدى فكان هذا الكتاب..

لقد غاب عنا الدكتور زكى نجيب محمود.. ولكن العمالقة من إمثاله عندما يغيبون فإنهم

يغيبون بإجسادهم فقط بينما تبقى أفكارهم وكلماتهم نابضة بالنور والحياة، تضئ للإجيال طريق المستقبل..

وهذا الكتاب الذى يتضمن بعضا من حواراتى مع الدكتور زكى نجيب محمود التى نشرت فى جريدة أخبار اليوم وفى مجلة الشعر والتى لم تنشر بعد وكنت احتفظ بها لنفسى... ماهو إلا محاولة متواضعة منى للمساهمة فى تخليد ذكرى عملاق مصرى ساهم بفكره وارائه الحرة فى تبديد ظلام التخلف الذى يحاول البعض - ومازالوا للأسف

- إن يبددوا به نور المستقبل والأمل المضىء فى نفوس شعب مصر..

استاذى العظيم...... شكرا

فاطمة بركة

الفيلسوف.. فى سطور

* ولد الدكتور زكى نجيب محمود عام ١٩٠٥ ميلادية بقرية «ميت الخولى عبد الله» وهى من قرى محافظة دمياط.

* عاش فى القرية مع اسرته خمس سنوات، قضى منهم سنتين فى الكتاب ثم انتقلت

الأسرة إلى القاهرة حيث التحق بالتعليم الأولى واستمر فى دراسته حتى تخرج من الجامعة.

* وعندما تخرج فى الجامعة عين مدرسا بالمدارس الثانوية ثم سافر إلى إنجلترا فى بعثة دراسية حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة.. وعندما عاد إلى مصر عين مدرسا بقسم الفلسفة بكلية الآداب (جامعة القاهرة) واستمر فى الترقى حتى أحيل إلى المعاش، فعين أستاذا غير متفرغ..

* كان أحد كبار الكتاب فى جريدة «الأهرام» اليومية لسنوات طويلة.

* تولى مناصب عديدة وعمل خارج مصر فترات طويلة من عمره.. حيث سافر عام ١٩٥٢ إلى الولايات المتحدة ليعمل أستاذا فى جامعتين أمريكيتين لمدة عامين.. وفى عام ١٩٥٤شغل منصب المستشار الثقافى للسفارة المصرية فى واشنطن.. وعمل فى جامعتى بيروت العربية عام ١٩٦٤، والكويت لمدة خمس سنوات اعتبارا من عام ١٩٦٨ إلى ١٩٧٣.

* حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفلسفة عام ١٩٦٠ .. وجائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٧٥ .. كما حصل على وسام

العلوم والفنون والآداب من الطبقة الأولى ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى.

* حصل على جائزة الثقافة العربية من جامعة الدول العربية عام ١٩٨٤.

١

أيام فى حياتى

أيام فى حياتى

كيف بدأ الدكتور زكى نجيب محمود أولى خطواته فى مجال الفكر؟.. وكيف وصل إلى ماوصل إليه؟ وكيف يمكن أن يحقق الإنسان هدفه؟.. وماذا يريد أن يقول للشباب؟.. وماذا يقول عن حياته؟

وضعت هذه الأسئلةأمام الدكتور زكى نجيب محمود.. وكانت أجابته الوافية درسا للشباب ولكل الأجيال الحالية والقادمة.

طلب إلى أن أقول شيئا عن «ايام فى حياتى».. وحياتى فيها الاف الأيام ولا أدرى أمام هذا البحر المحيط من الأيام أى حفنه منها أختار لأقدمه..

ورأيت أن أقدم الأيام التى أحسست فيها بأن بذور طموحى نحو الفكر والأدب والدراسة

قـد نبـتـت فى نفـسـى... وأنا لم أشــعــر بهـذه البـذور واضـحـة وأنا صـغـيـر، بالرغم من أننى كنت دائمـا متفـوقـا فـى فـرقتى الدراسـيـة، فلم أكن أشعر فى تلك الأيام، الا بمجرد أننى تلميذ صغير يذهب إلى المدرسة ويحفظ دروسه، ثم ينجح فى آخر العام الدراسى بتفوق..

إمـا أن أكـون مـثـقـفـا لـنفـسـى قـبل أن أكـون مثقفا لسواى.. وإمـا أن أكون عالما راضيا عن نفسى، قبل أن يرضى عنى الآخرون.. وإمـا أن أكون كاتبا يلذلى أن أحمل القلم وأكتب، قبل أن يلذ ذلك للآخرين.. فـذلك ـ فـيـمـا أظن ـ لم

يبدأ عندى الا وأنا فى سن المراهقة. وفى سن المراهقة عندى وعند كل مراهق تتعدد الطموحات، ومن هنا أسموا هذا السن «المراهقة» والرهق هو تعب الجسم عند الأنتقال من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب، فهناك مرحلة وسطى يتعب لها الجسم أثناء ذلك التحول ويحس رهقا.. ولذلك يكون الأنسان مراهقا لأنه يجاهد فى أن ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة.

وفى أثناء هذه المجاهدة الداخلية، هناك مراحل تشبه مراحل تطوير الاسنان عند

الاطفال.. وكل مرحلة من هذه المراحل تتعب الجسد قبل أن تتعب الروح.. وهذا الاعتمال الداخلى الذى يعتمله البدن، يتبعه كذلك تشتت فى الانتباه، وتشتت فى الاتجاه الذى يتجه إليه الإنسان، فلا يدرى بالضبط ماذا يريد فهو يريد أشياء كثيرة، ولكنه لايكاد يقف عند احداها الا ويقفز بخياله إلى الآخرى.. وهو لايستقر، كالعصفور يظل يقفز من فرع إلى فرع، فى شىء من القلق، وفى شىء من الاضطراب، أو ما يبدو لنا وكأنه اضطراب.

فكذلك المراهق.. يتمنى مثلا أن يكون شاعرا، وعندما يحاول كتابة الشعر، قد يجد

أنه قــادر على ذلك، أو يجــد أنه غــيـر قــادر، وسواء وجد فى نفسـه هذه القدرة أو لم يجدها فـأنـه يقـفـز مثـلا إلى الدين، فيـتمنى أن يكون زاهدا متصوفا، وفى نفس ذلك الوقت يمكن أن يتمنى أن يكون «محبا»، عندما يقابل من يحبها أو من يظن أنـه يحبهـا .. أنه يقـفـز من أمل إلى أمل أخـر، ومن طمـوح إلى طمـوح آخـر.. وكلهـا طمـوحـات تتـعـدد فى كل مـراهق تقـريبـا، وكل بحسب الميدان الذى يتخرج فيه وأنا أتكلم الأن عن مـيدان طفل مـثلى ومـراهق مـثلى مـيـدانه الدراسة.

وعلى كل حال.. فقد أحسست بهذا كله، تدينت إلى أخر الدرجات التى يمكن أن يتصورها الخيال، حتى وصلت إلى درجة الدروشة»، متأثرا بالدروس الدينية التى كنت استمع اليها بين صلاتى المغرب والعشاء فى المسجد وعمرى خمسة عشر عاما.. وكان صاحب هذه الدروس يوحينا بأشياء كثيرة، وكنا ننفذها بالحرف الواحد، وبالطبع فأن كثيرا جدا منها لاأقبله الأن، لالنفسى ولا لأبنائى، لأنه غير مؤسس على شىء من مسئولية الإنسان أمام عقله.

تعلقت بأشياء كثيرة جدا .. تعلقت بالنزعة الدينية العميقة مع شىء من «الدروشة» وقلة العقل وكذلك تعلقت بالشعر وحاولت أن أنظم ابياتا منه .. وتعلقت كذلك بالكتابة، وكنت أكتب كثيرا، فإذا وقع أحد كبار اسرتى على شىء مما كتبته، فكان أما يضحك منى أو أن ينهرنى لأننى أضيع وقتا كان يجب أن أصرفه فى المذاكرة.

وهذه الفترة يمر بها كل مراهق، فيتشتت أنتباهه نحو اهتمامات كثيرة ولايدرى ايهما يقابل طبيعته ويقابل قدرته .. ولكن بعد تلك

الفـتـرة بقليل، وفى حـوالى سن الثـامنة عـشـر بدأت أقـرا فى نهم.. وكـان أهـم مـا أقـبـل على قراءتـه هو مايخـرجه كبـار الكتـاب والأدبـاء يـومـا يعـد يوم.. قـرأت للدكـتـور طه حـسـين، وعـبـاس مـحـمـود الـعـقـاد، وإبراهيم عـبـد القـادر المازنى، وسلامـة موسـى، والدكتـور مـحـمـد حـسين هيكل، وأمـيـر الشـعـراء أحـمـد شـوقى، وشـاعـر النيل حافظ إبراهيم.. وغيرهم.

كنت أقرا لكل هؤلاء كل حرف مما ينشرونه، واريد أن أؤكد على هذه الجملة، كنت أقـرا لهم كل حـرف ينشـرونه فـإذا كنـا فى بداية الـعـام

الدراسى قرات مـاينشـرونه فـور نشـره، وإذا كانت السنة الدراسـيـة تقـتـرب من نهـايتـهـا، اشـتــريت مــاينشــرونه ســواء فى الكتب أو الصـحف أو المجـلات، وحـفـظتـه إلى أن تاتى الاجازة الصيفية وأقرا كل ذلك خلال شهورها.

ولا أنسى مـاكـان يدور بخـاطرى فى ذلك الوقت، فـقـد كـان أملى أن أكـون مـثل هؤلاء.. وأريد أن أؤكـد للشــبــاب أن المهم جـدا فى الشباب الطموح أن يتعلق طموحه وخياله بدرب من دروب النبوغ، ويتمثل ذلك إما فى شخصية تعيش نفس عصره أو فى شخصية من التاريخ،

ولاتتمثل أهمية هذا التعلق في التقليد، فأنت لو قلدت سواك تكون كمن حكم على نفسه بالاعدام.. ليس المطلوب التقليد، وأنما المطلوب أن يكون الشاب من نوعية الشخصية التي يتمثلها.

لقد كان من الممكن أن اتعلق بإشياء أخرى، غير أن أكون مثقفا وكاتبا مثل هؤلاء الكتاب الكبار الذين اقرأ لهم.. ولكن هذا هو ماحدث، فلم يتعلق خيالي بأن أكون وزيرا أو أن أكون غنيا، ولا أن أكون صاحب جاه أو قائدا عسكريا، لم يطف ببالي ابدا أن أكون واحدا

من هؤلاء، وأنما كان الذى «كبس على نافوخى» هو أن أكون واحدا من هؤلاء الذين يكتبون، والدنيا كلها تسمع لهم وتقرا لهم، كما كنت اتخيل وأنا فى مثل تلك السن.

واكرر مرة أخرى.. ليس الغرض من تحديد نوع معين من النبوغ تتمناه لنفسك وأنت شاب، هو أن تحاكيه، لأن المحاكاة قتل للذى يحاكى، ولكن الغرض الاساسى هو أن تكون من نوعه.. لقد كان يكفينى أن أتأرق واتحرق شوقا لأن أكون كاتبا مثل هؤلاء الكتاب الكبار، ولكن بطريقتى الخاصة.. كان يكفينى هذا لاستهدف

هدفا محددا، وهذا الهدف المحدد هو الذى يرسم الطريق، أى أن الطريق يتحدد بتحديد الهدف.

يجب أن يكون لكل شاب هدفه الذى يحدده لنفسه، ولايترك الآخرين - مهما كانوا - لكى يحددوا له هذا الهدف.. ويمكن أن تحدد له ميوله الهدف الذى يصبوا إليه، فإذا لم يجد فى نفسه ميلا خاصا، فأنه لن يكون كبيرا أو مشهورا فى أى شىء، وسيكون فقط واحدا من الصفوف.. وهذا - بالتاكيد هو ماسيحدث لمن لايحس فى نفسه وهو صغير بأنه يتمنى أن

يكون شيئا كبيرا، فيركز على الوسائل التى توصله إلى هدفه.

وقد حدث لى ذلك.. فلما تخرجت فى الجامعة عام ١٩٣٠ بدات الكتابة بأنتظام بعد أن كنت اكتب أثناء الدراسة بغير أنتظام، وكتبت فى مجلات كثيرة كأن من اهمها مجلتى «السياسة الأسبوعية» و «البلاغ الاسبوعى».. كما عملت بالتدريس فى المدراس الثانوية، وانتقلت بعد ذلك إلى التدريس فى الجامعة عندما حصلت على درجة الدكتوراه.. وكانت الكتابة تسير فى خط مواز للعمل الذى اكسب منه رزقى، ولم ينقطع ذلك يوما واحدا.

ولكن.. كيف يكون الاعداد أو الاستعداد للكتابة؟ أن ذلك يتم بشكل غير متعمد.. والمهم هو الاستمرار فى القراءة التى توحى لصاحبها الكتابة النابعة من شخصيته، والتى تعبر عن فكر صاحبها وراى صاحبها وذوق صاحبها، وهذه هى الكتابة المبدعة، الكتابة التى تقويها القراءة وتوحى بها القراءة.

والقراءة ليست هى كل شىء، ورنما هى مجرد عنصر من العناصر المختلفة، تماما مثل الأكل أو «شيل» الحديد، أو مثل ماتفعله الشجرة، فهى تمتص من التربة عناصر

غـذائهـا، بالإضـافـة إلـى الماء واشـعـة الـشـمس والهـواء، فـتنمـو فـى النهـايـة وتزهـر برتقـالة أو وردة أو حـبـة قـمح.. وهنـا لم تكن البـرتقـالة أو الوردة أو حبـة القمح هى العناصر التى اخذتها الشـجـرة، ولا هـى المـاء الذى ارتوت بـه، ولاهـى اشعة الشمس التى كان لابد لـها منها حتى تنمو وتـزدهـر.. ولـكن هـذه الأشـيـاء شـىء جـديـد ابدعـتـه الـشـجـرة.. ابدعـتـه مما اخـذتـه من الأرض من عـنـاصـر، ومن المطر من مـاء، ومن الشمس من ضوء.

إذا نظـرنـا إلـى رجـل ريـاضـى ـ حـامل اثقـال مثلا ـ نجده صاحب جسم قوى، ولكنه لايستطيع

أن يدرك فى أى يوم بالذات جاءت هذه القوة، فهناك عدة عناصر تالفت حتى اخرجت رجلا قويا.. كذلك الاكل فنحن ناكل الارز والخبز واللحم والجبن وغيرها من الماكولات كل يوم، وبدون التغذية لاينمو جسم الإنسان، ويتم النمو فى كل اجزاء الجسم ومكوناته، من لحم وعظام وعضلات واعصاب وخلايا ودماء، وهذه «التكوينه» كلها هى التى تفكر وتبدع، فإذا كان الجسم صحيحا كان التفكير صحيحا.

وهكذا لايستطيع المفكر أن يقول من أين بالضبط جاءته الافكار، والابداع ينتج من تآلف

عناصر عديدة، مثل النحلة التى لاتستطيع أن تحدد من أى الزهرات اتت بعسلها .

لقد قرأت وقرأت، وكتبت وكتبت إلى أن أصبح عندى خمسة واربعون كتاب أو أكثر، واعتقد أنها ذات قيمة بدليل أنها مقروءة، وبدليل أن الناس يدفعون مالا مقابل شرائها، أى أنهم يريدونها، وهى ليست كتبا دراسية مفروضة على أحد، بالرغم من أن لى كتبا من هذا النوع، ولكننى اقصد الكتب التى عبرت فيها عن نفسى فى المجال العقلى.

ويكفينى من ايامى، تلك الايام الأولى، التى تاثرت فيها بالكتابات من حولى.. والمهم فيما أنقله للشباب هو ضرورة تحديد الهدف وتحديد ماذا اريد أن أكون فى حياتى، لأن تحديد الهدف هو الذى نظم الوسائل والخطوات التى ادت إلى تحقيق ماحققته منه.. وبالطبع لم احقق إلا قليلا.

٢

الفلسفة المظلومة

الفلسفة المظلومة

ماهى الفلسفة؟.. ولماذا يتهمها البعض بالتعقيد؟.. ولماذا يهرب منها الشباب؟.. ثم ماهو دورها فى المجتمع؟.. وكيف نستفيد منها؟

الدكتور زكى نجيب محمود.. يدافع عن الفلسفة فى اطار اجاباته عن هذه الأسئلة.

الفلسفة كلمة مظلومة، وهى مظلومة بصفة خاصة من الشباب الذين لايعرفون عنها شيئا كثيرا أو قليلا، ثم يتهمونها بما يتهمها به نفر كبير ممن لم يدرسوها ولم يعنوا بمعرفة حقيقتها.

الفلسفة مظلومة، ويعتقد الشباب أنها غامضة ومعقدة ولافائدة منها وعسيرة الفهم،

ويقـولون أنه لافـائدة من دراسـتـهـا أو حـتى قراءتها، لأنها لاتحل أشكالات مادية مباشرة!

وأريد في هذه الكلمات وبعجالة سريعة أن أوضح فى لغـة مـيسـرة إلى أقـصى الحـدود مـاهيـة الفلسـفـة، ثم أعـقب على ذلك بالنفع العظيم الذى يتـرتب على قـراءة الفلسـفـة ودراستها والالمام بها فى حياتنا الثقافية، بل وفى حياتنا العملية فى بعض الاحيان.

ولعل أفضل اساس نقيم عليه التوضيح لحقيقة الفلسفة، هو أن نبدأ بعبارة قالها شيخ الفـلاسـفـة «ارسطو» لكى نضـمن أننا نقـيم

كـلامنـا علـى حـجـة.. فـقـد قــال ارسـطو أن الفلسـفـة هـى تعليل الاشـيـاء أو الظواهـر بعللهـا البعيدة.. فما معنى ذلك؟

لنبـدا بالعلم لنعـرف مـاهيـتـه، ثم نثنى بعـد ذلك بالفلسفة لتتضح الصورة..

العلم يعلل الظواهر بعللهـا القـريبـة.. فـمثـلا نفــتــرض أننـا ســألنـا : لماذا ينـزل المطـر؟.. أو بمعنى آخــر نريد تعليل ظـاهرة المطـر.. والعـلم هنـا يعلل هذه الظاهرة بالاسباب المباشرة، وهـى درجـة الحـرارة واتجـاه الـرياح ودرجـة الـرطوبة

فى الهواء، وغير ذلك من العناصر التى إذا اجتمعت فى مكانماينزل المطر.

هذا هو التعليل العلمى، أى تفسير ظاهرة المطر بالأسباب المباشرة والتى من شأنها إذا توافرت فى مكان ماينزل المطر.. وهكذا فى كل ظاهرة أخرى عندما يتعرض لها العلم.

ومثال آخر.. لماذا يغلى الماء؟

يعلل العلم غليان الماء بسببه المباشر، فيقول أنه عند درجة حرارة «١٠٠» على مستوى سطح البحر يغلى الماء.. ويشرح ماهيته الغليان.

أما الفلسفة.. فإنها تأتى بعد العلم، لتعلل نفس التعليل العلمى بما هو أعم منه.. بمعنى أنه إذا قلنا - مثلا - أن المطر علميا ينزل للأسباب العقلانية التالية «ونوردها».. فماذا سبق هذه التفسيرات العلمية؟.. ومثل هذه القوانين العلمية وهذه العلة العلمية تريد

بدورها أن تعلل، لماذا كانت؟.. ولماذا كتب لها أن تكون؟.. فنضطر فى هذه الحالة أن نعلو خطوة أو درجـة إلى أعلى، كـمـا كـان العلم يعلو من الجزئية الواقعه على أرض الواقع إلى القانون الذى يفسرها.. والفلسفة تبدا من القانون العلمى أو مجموعة القوانين العلمية، وتعلو عليها درجة باحثة عما هو أعلى من هذه القوانين العلمية، وتضمها معا فى قانون واحد،

وفى العلوم.. علم الحرارة له قوانين، وعلم الضوء له قوانين، وعلم النبات له قوانين وعلم الاقتصاد له قوانين، وهكذا.. وعلم الاقتصاد -

مثلا - غير مسئول عما يقوله علم الكهرباء، وعلم الضوء غير مسئول كما يقوله علم الفلك وهكذا.

والفلسفة تاتى لترى مجموعات القوانين فى مختلف الميادين العلمية، وتسال: هل هذه القوانين تلتقى معا فى مبدا واحد؟.. وإذا وجدت المبدا الواحد الذى يضم مجموعات القوانين العلمية، يكون هذا المبدا هو مايسميه الفلاسفة «المبدا الأول». وهذا المبدا الأول عندئذ يكون هو محور الفلسفة الفيلسوف الذى يصل إليه بتحليلاته.. والفلاسفة قد يختلفون

فى وجهات النظر وفى طرق التحليل، فيصلوا إلى مبادىء مختلفة.. افلاطون يصل إلى مبدا، وارسطو إلى مبدا آخر، لأن التحليل اختلف، ولكن العملية تبقى واحدة.

ولكن.. مافائدة أن أصل إلى مبدا واحد يضم اشتات المعارف العلمية مثل القانون العلمى الذى يضم اشتات الظواهر الجزئية التى حدثت بالفعل على ارض الواقع؟ فائدة ذلك هو أن الخريطة الفكرية لاتتضح تماما إذا جزئت.. ولنضع خريطة القاهرة كمثال، فكثيرون قد يعيشون فى القاهرة عمرهم كله،

دون أن يرونهـا مـوحـدة فى خـريطة واحـدة، ولايعـرفـون مـاهـى العـلاقـة بين العـبـاسـيـة وحلوان؟.. ومـاهـى العـلاقـة بيـن جـبل المقطم ونهر النيل؟.. وماهى العلاقة هنا تعنى ايها فى الشـمـال وايهـا فـى الجنوب، وإيهـا إلى اليمـين وإيهـا إلـى اليـسـار.. وبالتـالى لاتتكون صـورة متماسكة عن القاهرة فى اذهان سكانها مهما عاشوا فيهـا.. وهنا تاتى الخريطة لتضع هذه المواضع منسوبة بعضها إلى بعض، فإذا درسها الدارس تكونت عنده فكرة عن القـاهـرة، يستحيل أن يقارن بها الفكرة المجزأة المفتتة

الموجـودة عند الشـخص الذى يـراها شـارعـا شـارعـا ومـيدانا مـيدانا، وهو لايعلم عـلاقـاتهـا بعضها ببعض.

وكذلك فى الحياة الفكرية، قد نعـرف فكرة «أ» وفـكـرة «ب» وفـكـرة «ج» وفـكـرة «و» دون أن تعـرف العـلاقـة بين هذه الافكار المخـتلفـة.. وبذلك فإنه بـحكم أننا عـرفناها مـجزأة، فـهـذه مـعـرفـة أقل بكثـيـر جـدا من أن نـعـرف هذه الحـقـائق نفـسهـا مـرتبطة بـعـضـهـا بـبـعض بالعلاقات التى تقوم بينها.

والفلســفـــة تؤدى هذا الدور فى رسم الخـريطة الفكرية التى تضع اجـزاء الفكر أو

العلوم و المعرفة المختلفة، كل فى موضعة بالنسبة للأخرين، وذلك بواسطة انتسابها جميعا أو انتمائها جميعا لمبدا واحد يضمها.

وهناك جانب آخر فى غاية الاهمية، وهو أن العلوم تتغير، وتتغير قوانينها عصرا بعد عصر، وتبعا لذلك تتغير الفلسفة ايضا.. فمثلا الفيلسوف اليونانى أو الفيلسوف العربى فى العصور التى جاءت بعد اليونان أو الفيلسوف الاوربى فى العصور التى جاءت بعد العصور العربية، سنرى أن كل فيلسوف منهم يضع مبادىء غير التى وضعها سواه، وهذا يؤخذ

احيانا على الفلسفة فيقولون أن الذى يقوله فيلسوف ينكره عليه فيلسوف أخر، مع أن المعروف أيضا أن العلوم تتغير عصرا بعد عصر فى قوانينها، ثم يضيف ثقافة أخرى جديدة إلى ما أضافة العصر الذى سبقه.

وبالطبع فإن الفلسفة عندما تاتى لتؤدى عملها فى استخلاص المبادىء العامة التى تضم اشتات الثقافة المعنية فى عصر معين، ستصل إلى مبدا مختلف.. وهكذا كان لكل عصر ثقافته الخاصة، وأيضا فلسفته الخاصة.

وهنا نصل إلى نتيجة مهمة جدا، واحب للشباب الناهض أن يلم بها فى وضوح، وهى أنه حيث لاثقافة اصيلة فلا فلسفة، لأن الفلسفة تاتى لتستخلص من الثقافة القائمة مبادئها التى تفسرها.

٣

أدب الشباب... وهم!

أدب الشباب وهم!

كان المفكر الكبير الراحل الدكتور زكي نجيب محمود يهتم اهتماما كبيرا بالشباب وقضاياه المختلفة، وخاصة الموهوبين منهم.. ولذلك فقد اخذت قضايا الشباب جانبا كبيرا من حواراتي معه.. وفي الصفحات التالية يتحدث المفكر

الكبير عن الشباب وادبهم وعما يسمي بادب الشباب ومجلات الشباب.. ويقدم نصيحته لكل شاب يريد أن يسير في طريق الفكر والأدب.

كثيرا جدا ماياتينى نفر من ابنائنا الشبان الذين يشعرون فى داخلهم بأنهم يمتلكون موهبة الأدب فى أى صورة من صوره، وقد يكون منهم الشاعر أو الروائى أو الكاتب المسرحى، أو الموهوب فى أى صورة من صور الادب المختلفة الأخرى.. ويسالنى هؤلاء الشباب: لماذا لانهديهم ـ نحن جيل الكبار ـ

الطريق الصحيح فى كتابة الأدب ليشقوا طريقهم فى دروبه؟.. ولماذا لاننقد أعمالهم؟.. واسئلة اخرى كثيرة.. ظانين إننا فى الجيل الماضى كنا نجد من يقرأ لنا أو من يعنينا أو من ينتقدنا من الكبار! واريد هنا أن أصحح هذا الوهم فى اذهان الشباب الواعد، الشباب من ذوى المواهب الكامنة التى تريد شيئا من التنشيط، حتى تستطيع أن تظهر من خلال أعمال أدبية راقية.. ولابد حقيقة من تصحيح هذا الوهم، لأنه وهم ذو جوانب عدة..

الجانب الأول.. وهو يتضمن رايا لى عرضته مرات عديدة فى احاديث صحفية واذاعية

وتليفزيونية، ومن خلال مقالات كتبتها فى الصحف والمجلات المختلفة أو كتب اصدرتها وتناولت فيها مسالة الشباب وأدب الشباب..

لاشىء فى الدنيا اسمه أدب الشباب وأدب الشيوخ، إلا عندنا فى مصر، فالأدب كما اراه هو أدب، والشاعر هو شاعر سواء أكان شابا أم شيخا، بل إن القارىء للأدب لايسال ابدا كم عمر الذى أنتج هذه القطعة من الأدب؟!

واريد أن أسال أى شاب من هؤلاء الذين يظنون أن الشباب لهم أدب غير أدب الشيوخ: ماهو العمر الذى يحتسب عنده الإنسان

شابا/ .. فإذا قال مثلا أنه من السابعة عشر أو الثامنة عشر إلى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين.. قلت له إنه فى حدود هذه السن نتج تسعة اعشار ماانتج من شعر فى الدنيا باسرها .. ولو حددنا أعمار الشعراء عندما ابدعوا روائع الشعر، سنجد أنهم كانوا فى فترة العشرينات من عمرهم.. والشعراء الانجليز المشهورون جدا فى الحركة الرومانسية التى ازدهرت فى القرن الماضى ـ وكل شاب يهتم بالأدب والشعر لابد أن يكون قد سمع عنهم ـ نجد أن أشهرهم بايرون وشبلى وجيتس قد

قالوا شعرهم كله - وخاصة الرائع منه - قبل أن يصلوا إلى سن السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين.. فهل نقول أن ادبهم هذا ادب شباب؟.. كلا أنه ادب فقط.. وهل نقول أن شعرهم شعر شباب؟.. كلا أنه شعر فقط.

وهل سال أى من هؤلاء الشباب نفسه: متى بدا المتنبى يقرض روائع شعره؟

لقد تم ذلك وهو فى العشرينات من عمره.. نعم لقد امتد به العمر إلى الاربعينات من العمر أو نحو ذلك، ولكنه كان قد اصدر روائع شعره، وهو فى العشرينات الأولى من عمره.

الم يسمع هؤلاء الشباب مثلا بحركة الشباب سواء فى الولايات المتحدة الامريكية أو انجلترا أو فرنسا أو ايطاليا أو المانيا؟.. أن هذه البلاد هى التى نشا فيها مايسمى بثورة الشباب أو حركات الشباب، وخصوصا فى حقبة الستينيات من هذا القرن.. والشباب من اعضاء هذه الثورات أو الحركات كان لهم قادة اخذوا بزمام تلك الحركات، ومثل هؤلاء القادة كانوا فنانين من الدرجة الأولى، وشعراء من الدرجة الأولى، وروائيين من الدرجة الأولى.

ونحن هنا فى مصر قد نظن أن حركات الشباب التى سمعنا عنها، مثل الهيبز والخنافس وما إلى ذلك من حركات، كانت حركات لاهية وعابثة، وذلك غير صحيح على الإطلاق.. فإن اعضاء هذه الحركات وان كانوا من الشباب، إلا أنهم ثاروا من أجل اشياء كثيرة، ومن بين هذه الاشياء الفن والأدب والشعر، ولذلك قالوا شعرا جديدا وكتبوا رواية جديدة وقدموا موسيقى جديدة.. ولعلنا جميعا نعلم ماذا صنع هؤلاء الذين نسميهم «الخنافس» لقد صنعوا موسيقية بديعة شدت

اذان العالم كله إلى الدرجة التى جعلت الملكة اليزابيث ملكة بريطانيا تمنح لقب «سير» إلى كل افراد هذا الفريق، لما قدموه لبلادهم من شهرة وسمعة عالمية، ثم من اموال طائلة دفعها عن طيب خاطر الملايين من جميع انحاء العالم، الذين توافدوا على مدى السنين على انجلترا ليسمعوا موسيقى هؤلاء «الخنافس».. فكم كان عمر هؤلاء عندما ابدعوا تلك الموسيقى الجديدة وواجهوا بها العالم كله؟.. لقد كانوا جميعا فى العشرينات من عمرهم!

إذن ماذا نعنى عندما نقول أدب الشباب؟..

مــاذا نعنــى إذا كــانت روائع الـفن فى تـاريخ الفن كلـه، وروائـع الأدب فـى تـاريـخ الأدب كلـه ـ عندنـا وعنـد سـوانا ـ إنما نتـجت من شـبـاب لم يتجاوز العشرينات من عمره؟!

فهل بعد كل ذلك يريد شبابنا من الشيوخ أن يهـدونهم سـواء الـسـبـيل؟.. والمفـروض أن يأتـى الشـبـاب ليـصـحـحـوا الشـيـوخ.. ويجـب أن يعلم الشــبــاب هـذه الـنقـطة جـيـدا وبوضــوح تام.. والشبـاب أن لم يكن عنده الجديد الـذى يصـحح بـه مـاهـو قـائم فـى الـفن وفـى الأدب وفـى الشـعـر، بل وفـى الـفكـر ذاتـه، فــإن ذلك يـعنـى إنه لايـمـلك

شيئا يقدمه للناس، وبمعنى آخر فإنه يكون فى هذه الحالة ضالا!

وإذا كان الشاب ليس عنده إلا ما عند الشيوخ، فلماذا يريد أن يظهر أذن؟.. هل يظهر ليكون نسخة مكررة مما هو قائم بالفعل؟.. وعلى أى حال اهلا وسهلا به إذا كان لايملك إلا ذلك، ولكن عليه أن يعلم أنه سيظل نسخة أخرى من كتاب موجود، أو نسخة أخرى من صحيفة موجودة، والعبرة الحقيقية بكتاب جديد يظهر أو بصحيفة جديدة تظهر، لا مجرد نسخة أخرى من نسخ موجود مثلها.

وإذا سلمنا جدلا بهذه البديهية، وهى أن الجيل التالى إذا كان عنده الجديد الذى يقدمه فى الفن وفى الأدب وفى الفكر، فإنه لابد بالضرورة أن يكون هذا الفنان أو الأديب أو المفكر مخالفا لمن قبله من الاجيال، فهل يمكن بعد ذلك أن ياتى ليطلب مشورة الجيل السابق مع أن الطبيعة قد انتجته ليثور عليه، وقد انتجته ليطوره، وقد انتجته ليخطو خطوة بعد الخطوات التى خطاها الجيل السابق أو الإجيال السابقة عليه؟!

والجانب الثانى فى هذه القضية.. بدعة موجودة عندنا.. فنجد مايسمى مجلة للشباب،

وصفحة للاقلام الناشئة، وصفحة للشعر الجديد أو شعر الذين لم ينشر لهم من قبل... إلخ!!

وحول هذا الجانب اتساءل: لمن تنشر هذه الاشياء؟.. ومن الذى يرضى أن يقرءاها إذا عرف من عنوانها أنها انتاج من لم يمارس مهنة الكلم من قبل؟

واقول أن الشاب الواعد صاحب الموهبة الحقيقية وصاحب الفن الجديد والشعر الجديد، لابد أن يخفى عمره، ولابد أن يكتم عنا أنه شاب حتى نقرأه، فإذا ماقرأناه

واعجبنا به، فإنه عندئذ يكون له الحق فى أن يظهر لنا علنا، ويقول هذا الذى اعجبتم به هو أنا وعمرى عشرون عاما.. وعندئذ نعترف به ولو مرغمين، لأننا اعترفنا به عندما اعجبنا به قبل أن نعرف سنه، وغير ذلك بمثابة قلب للأوضاع الصحيحة، وهذا يعنى أنه لو كنت شابا لانكرت على الدنيا إننى شاب عندما اكتب فنا أو موسيقى أو أدبا، وانتظر إلى أن تعترف بى الدنيا أولا، ليس لأننى شاب، بل لأننى احدثت ما انجزته فلفت إلى الانظار.

إذن لو طلب من أن انصح الشاب الطريق الذى سرت عليه.. فإننى سارفض ذلك واقول

«لا».. واقــول لـكل شــاب لاتســر علـى الطـريق الذى سرت، عليه لأنك جئت لتكون افضل منى، وإذا لم يحدث ذلك، فسوف تتراجع إلى الوراء!

ومع ذلك.. فـإنه إذا كان لابد أن أقول كلمة للشـبـاب فـى هـذا المجـال، كلمـه تنفع ولاتضـر، فسوف اقول إنه من ابرز سمات شباب الجيل الحـالى إنه لايعـمل على تحـصـيل المعـرفـة ولايقـرأ، كـمـا إنه لايبـذل الجـهـد، أو هـو على أقصى تقدير يبذل جهدا ويظن أنه جهد كبير، بينما لايعرف كم هو ضئيل هـذا الجهد إلا إذا عرف كم عمل وكم جاهد رجال الجيل الماضى.

واتذكر عندما كنت فى صدر الشباب، إنه لم يمر على يوم واحد فى حياتى دون أن أعمل على الاقل خمسة عشر ساعة بين الكتب والاوراق ومايكتبه الناس وماكتبته القرون السابقة وهكذا دائما، عمل وعمل وعمل فوق دراستى وفوق مهنتى التى مارستها. وقد كنت امضى النهار فى عملى، ثم اعود إلى منزلى لابدأ عملى الخاص من القراءة والكتابة، وكان ذلك يستمر إلى حوالى عشر ساعات كل يوم.. وكنت اقرأ الكتاب تلو الكتاب تلو الكتاب، وهذا شىء لايمر بخاطر شباب اليوم.

وللاسف.. فإن كثيرا من الشباب الذين يظنون فى أنفسهم الموهبة، فإنهم يشرعون فى كتابة القصة أو كتابة مسرحية أو كتاب شعر، ظنا منهم أن هذه الاشياء يمكن كتابتها من غير قراءة مادامو يمتلكون الموهبة، وهذا خطا كبير، لأنه مامن اديب كبير ظهر فى الغرب أو عندنا فى الجيل الماضى، قد كتب ماكتبه الا وقد قرأ من الكتب مالا يستطيع الجيل الجديد أن يتخيله.. وهل سال أى من الشباب نفسه: كم قرأ طه حسين؟.. وكم قرأ عباس محمود العقاد؟.. وكم قرأ الشاعر احمد شوقى؟

وقد يخيل للبعض أن الشاعر ـ مثلا ـ لاداعى له أن يقرأ .. ويتسألون: لماذا يقرأ الشاعر وهو يمتلك موهبة الشعر؟.. وهنا لناخذ شاعرنا الكبير أحمد شوقى كمثال الاجابة عن هذا السؤال.. فقد كتب شوقى قصائدة الشهيرة عن تاريخ مصر وهو فى سنوات شبابه فى القرن التاسع عشر الماضى.. ويجب أن يقرأ الشباب من الشعراء الان ماكتبه احمد شوقى من قصائد عن تاريخ مصر، ليعلموا كم قرأ ليستصفى هذا الذى قرأه من تاريخ مصر ويسكبه شعرا بهذا الشكل، لأنه

بالطبع لايكتب تاريخ مصر شعرا كما يكتب المؤرخ كتابا فى تاريخ مصر، فالشاعر يريد أن يقتصر هذا التاريخ، لكى يستخرج منه مواقف تصلح لكتابتها شعرا، وهذا يعنى أنه لكى يحصل على حقيقة واحدة أو حقيقتين أو حتى عشر حقائق، فإنه لابد أن يقرأ مائة كتاب لكى يستخرج هذه الحقائق أو المواقف.

والشاعر الانجليزى الكبير «ويزر ويرك» وقد كان من أكبر شعراء انجلترا فى النصف الأول من القرن الماضى، مشهور عنه أنه كان اعظم قارىء فى بريطانيا، وكان لايستخدم فى

شعره الا ما يقوله الفلاحون فى القرى.. وهنا يعن للبعض أن يتساءل: إذا كان هذا الشاعر يريد أن يكتب شعرا بكل هذه البساطة ففيم حاجته إلى القراءة؟؟.. واقول إنه لولا القراءة لما كان لشعر «ويزر ويرك» أى أعماق، وهو لم يكن يكتب شعرا ليتسلى به أو يسلى به قراءة، وإنما كان يكتب ليسير اغوار نفسه، وهذه الاغوار هى التى يستخرجها النقاد عندما يقرأون شعر «ويزر ويرك» البسيط، وهى التى تدل على أنه قرأ الكثير جدا لكى يكتب هذا الشعر.

وهل يمكن ـ مثلا ـ أن يقرأ قارئ «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى دون أن يكون داخل مكتبه ليفهم ماذا ورد فى هذا المؤلف العظيم، وقراءة رسالة الغفران لايمكن أن تكون لمجرد التسلية، لأن قراءتها تحتاج لان يتزود الإنسان ويتسلح بالف كتاب يرجع اليها لكى يفهم مايقوله أبو العلاء المعرى.. وهذه هى ابجديات من يتصدى للعمل الأدبى، لابد أن يقرأ، ويقرأ كثيرا.

وقد يسأل شاب ممن يرون فى أنفسهم الموهبة: لماذا لاتقرأوننى؟.. فاقول له: وماذا

عندك لنقرأك؟.. وماهو المحصول الموجود فى رأسك لكى نقرأك؟.. وقد يكون فى حياته كلها لم يقرأ ثلاثين كتابا أو عشرين أو عشرة كتب، وربما لم يقرأ فى حياته كتابا واحدا!

ان الموهبة الحقيقية هى أن يعبر الإنسان الموهوب عن الزخم الموجود فى نفسه.. ومثل هذا الزخم لم ينشا من فراغ، ولايولد به الإنسان، وإنما هو نتاج ماقرأه الإنسان وماخبره فى الحياة، وامتزاج الاثنين معا يكونان الزخم فى صدر الإنسان وفى قلبه وفى فؤاده، ثم يسكبه شعرا أو رواية أو غير ذلك بحسب موهبته.

ومن التناقض أن يقول الشباب الموهوب أنه يريد من الكبار أن يباركوه وأن يعلموه.. فالمفروض أن هؤلاء الشباب ياتون لكى يصححوا الكبار.. وهذا لو أن الامور تسير فى مسارها الصحيح.

٤

أزمة فكر وثقافة!

هل نعيش الان أزمة ثقافة وفكر؟!

سؤال مهم.. وقد تضعنا الاجابة عنه أمام قضية فكرية خطيرة، تمس واقعنا المعاصر.. وتجعلنا نتساءل مرة أخرى: إلى أين نسير؟.. وماذا حدث لصورة مصر الفكرية ولماذا بهتت تلك الصورة وتغيرت ملامحها؟.. وأين شباب مصر الأن من الحياة الثقافية والفكرية؟!

القضية برمتها حملتها إلى المفكر والفيلسوف والأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود.. فكانت كلماته تحليلا رائعا لأسباب الأزمة.. ودرسا للشباب وللجيل الجديد من الأدباء.

فماذا قال الأستاذ:

عندمـــا نذكــر المدارس النقــدية فى تاريخ الحــيــاة الادبيــة المصرية.. فــإننا نجـــد فى مقدمتها المدرسة النفسية التى أوجدها عباس محمـود العـقاد، والمدرسة الاجـتـماعيـة التى أوجدها الدكتور طه حسين.

كان العقاد عندم يتجه للكتابة النقدية، فإنه يستهدف استخراج نفسية الأديب، وقمة ماكتبه

فى هذا الاتجاه كتابة الشهير «ابن الرومى من شعره» وهذا العنوان يدل على أن العقاد يسعى لاستخراج ابن الرومى وتكوينه الشعرى من خلال شعره.. أما الدكتور طه حسين فقد كان يلتمس من وراء الأدب الذى ينقده الظروف الاجتماعية التى نشأ فيها الشاعر أو الأديب.

أن هذا الجيل من الكتاب والمفكرين العظام لم يكونوا فقط يكتبون وينقدون، وإنما كانوا ينشئون مدارس واتجاهات، مازلنا نعيش فى ظلها إلى يومنا هذا.

وعندما نذكر ـ مثلا ـ أحمد لطفى السيد ومقالاته فى الحرية السياسية وجهوده فى

انشاء التعليم الجامعى، فإنما نذكر نموذجا من الرجال لايقف عند حد الكتابة كما أتفق، وإنما هو يكتب ليؤلف أو ليخلق اتجاها يحفره فى أرض المجتمع.. ومازلنا حتى الآن فى التعليم الجامعى نعيش على القيم التى أنشأها وأرساها أحمد لطفى السيد وأمثاله.

وأمير الشعراء أحمد شوقى هو الذى خلق فن المسرح الشعرى فى حياتنا الآدبية، وهو لم يكن يقدم مسرحيات عادية، وإنما خلق لنا فنا جديدا لم يكن لنا به عهد من قبل.. وهكذا نستطيع أن نقول عن توفيق الحكيم - فى ذلك

الحين ـ عندما كتب أولى مسرحياته الجادة، وهى مسرحية «أهل الكهف» فى أوائل الثلاثينيات، فهو لم يكن يكتب أو يقدم لنا مسرحية وكفى، وإنما هو خلق لنا فنا جديد وأدبا جديدا، والذين جاءوا من بعده ترسموا خطاه حتى وأن اختلفوا معه، لأنه كان قد رصف لهم الطريق الذى يسيرون عليه.

وبالقياس إلى هذا كله، فإننا إذا نظرنا إلى العشرين عاما الأخيرة، فإننا لانكاد نجد كتابا واحدا فى دنيا الفكر والنقد، يمكن أن يحفر لنا طريقا جديدا، أو يوجهنا اتجاها مخالفا

لاتجاهنا الذى نحن عليه.. وإذا كنا لانستطيع أن ننكر أن هناك جهودا فى هذا المجال، إلا أنها جهود تردد أصداء رجال السياسة، والكتاب والمفكرون، الآن ماهم الا شراح للحكم والسياسة، ومن هنا ضعف الانتاج، لأنهم يكتفون بأن يكونوا مجرد هوامش على النص.

ولاشك أن ذلك كان من أهم الاسباب - فى نظرى - التى ادت إلى اضعاف القدرة الإبداعية فى حياتنا الفكرية.. فقد تركت ريادة الفكر لرجال السياسة، فأصبح الفكر عبارة عن دعوة سياسية كائنا ماكان لونها، وأصبح اصحاب

القلم لايتوجهون لكى ينقدوا أو يوجهوا، وإنما لكى يشرحوا ماقاله رجل السياسة، شرحا يراعون فيه فى أغلب الاحيان الا يتجاوزو حدود ماقيل، وكأنما هم يكتفون بترديد مايقوله سواهم!

وأنا أتصور أننا إذا نزعنا شوكة النقد من التفكير، نكون قد قتلناه.. فإذا كنت سأكتب لأوافق على ماهو كائن، فإن كتابتى إذن ستكون نسخة من اصل، وليست كتابة اصلية.. والموافقة على الشىء الموجود لاتضيف إليه جديدا ولاتعدل منه.. فإذا كنا قد اقتصرنا

نحن حملة القلم على الموافقة على مايوجد فقد حكمنا على أنفسنا بالانتحار الأدبى!

على أن هناك ملاحظة لابد أن نثبتها هنا انصافا للحق، وهى أن أداه التعبير قد تغيرت إلى حد كبير.. فبعد أن كانت تلك الاداة على ايدى ابناء الجيل الماضى هى المقالة اساسا، اصبحت الآن القصة والمسرحية فى الاساس، ومع تغير أداة التعبير تغيرت مادة المضمون المعروض فيما يكتب، وذلك قد يوهم القارىء أن الاختلاف هو اختلاف فى المستوى، ولكنه فى الحقيقة اختلاف فى المجال.

فـمـا دامت أداة الـتـعـبـيـر هى الـقـصـة والمسرحية، فلابد أن يكون المضمون اذن عبارة عن شرائح من السلوك الاجتماعى كما تشاهده عين الرائى فى مجالات مختلفة من المجتمع، فنرى على الورق حياة العامل وحياة الفلاح وحياة الموظف وحياة الطموح وحياة السارق وحياة التاجر وحياة الاسرة.. وهكذا.

فإذا كانت أداة المقالة هى اداة فكر مباشر، فإن أداة القصة والمسرحية هى اداة فكر غير مباشر.. ولقد أدت الآداة الجديدة (أداة القصة المسرحية) إلى أن يكون أدباء اليوم اقرب إلى

نبض الحياة الحقيقية كما يقع، وهم إلى ذلك اقرب جدا من ادباء الجيل الماضى.. وأنا اتصور أن من يريد أن يعرف حياتنا من الداخل، فإنه لايستطيع ذلك من خلال ادباء الجيل الماضى، وإنما يستطيعه من خلال ادباء الجيل الحاضر.. وأوكد ذلك لكى انصف كثيرين ممن ينتجون أدبا فى العشرين عاما الأخيرة.

ولكن.. لابد أن اضيف أن اداة القصة والمسرحية من شانها إن تستر الضعف الثقافى، إذا كان موجودا فى الكاتب، لإنه من خلال

القصة والمسرحية لايستطيع الناقد بسهولة أن يدرك، ما إذا كان الكاتب عميق الثقافة، أم إنه سطحى فى ثقافته.. ولذلك نجد أن كثيرين من أدباء القصة والمسرحية لايجدون مايحفزهم إلى القراءة والتحصيل، على ظن منهم بأن ذلك لايجدى فى كتابه القصة أو فى كتابة المسرحية، فتكون النتيجة إنه إذا كان الموقف موقف تفكير وابداء رأى فى مشكلة ما، فلن نجد عندهم الا الفكر الضعيف والرأى المتهافت، لإنه لايوجد لديهم حصيلة يستطيعون بها أن يفكروا فى امورنا ومشاكلنا فى شىء من العمق.

وإذا اردنا خلاصة موجزة لما اسلفته.. فإننى أقول أنه إذا كان الجيل الماضى أعمق فكرا، إلا أنه كان ايضا أقل لمسا لنبض الحياة، وإنه إذا كان الجيل الحاضر أشد لمسا لنبض الحياة إلا إنه فى نفس الوقت ضحل فى تفكيره وفى ثقافته!

واريد أن أضيف إلى تلك الخلاصة التى اسلفتها.. إننى اتمنى لوجاء الجيل اللاحق ليحمل الرايتين معا.. الثقافة العميقة والفكر المتعمق والمستنير، مع القدرة على الغوص فى ظواهر الحياة النابضة، كما هى قائمة بالفعل فى مجتمعنا الحاضر.

وهنا.. قد نسأل أنفسنا: وكيف يكون العلاج لهذا القصور؟.. وكيف نحفز أديب هذا الجيل الحاضر إلى تعميق ثقافته بالتحصيل وبالاطلاع على ماكتبه أسلافنا من جهة وماكتبه غيرنا من جهة أخرى؟!

وأنا لاإدرى جوابا لهذه الأ إن ذلك سيأتى نتيجة مباشرة لرفع المستوى الفكرى للشعب القارىء، لأن الأدب الخاوى أن وجد سوقا بين جاهلين، فهو لن يجد مثل هذه السوق الرائجة بين مثقفين.

ولاشك أن التليفزيون والراديو من أهم الاسباب التى ادت إلى انخفاض المستوى

الفكرى عندنا، لأن هاتين الاداتين تريدان طعاما وتريدان زادا فى كل دقيقة.. وكثير من أصحاب الاستعداد الأدبى يتوجهون بنشاطهم نحو هاتين الاداتين.. ولكن من سوء الحظ أن كلا من التليفزيون والراديو يطلب من الكاتب أن يخاطب الجماهير العريضة التى تتعامل مع هاتين الاداتين بفكرة مبسطة وبأسلوب عامى، وفى احسن الاحوال بأسلوب اقرب إلى العامية.. وعندئذ تكون النتيجة أن الكاتب حتى لو كان يملك الاستعداد الطيب؛ فإنه يتهاون فى تنمية هذا الاستعذاد، لإنه استعداد لم يعد

مطلوبا فى السوق.. وبالتالى ينعكس هذا المستوى المتهاون على كتابته إذا كتب فى الصحف والمجلات، أو إذا كتب كتابا، أو مانحو ذلك من الانشطة الكتابية!

فإذا كانت الحال قد وصلت بنا إلى هذا الحد، الذى يجعل الكاتب يهتم بأن يكتب لغة سليمة من حيث قواعد النحو، ومن حيث اشتقاق الجمل والالفاظ، وذلك على ظن منه بأن ذلك أصبح امرا غير مطلوب.. فكيف نتوقع إذن، وكيف ننتظر، بل وكيف نأمل أن يكون عندنا أدب بالمعنى الصحيح؟!

وفى كل عصور التاريخ المختلفة وفى كل أقطار الأرض لايوجد إدنى شك فى العلاقة الوثيقة التى تربط مابين الأدب الرفيع وبين رخامة اللغة وسلامتها من الخطأ.. فإذا تهاون الكاتب فى لغته، فإنه يكون قد حكم على نفسه بأنه لاينتمى إلى الأدب، وهذا الحكم قد أصدره بنفسه على نفسه!

واللغة دائما هى روح الادب النابضة بالحياة، وهى قوامه الرئيسى، وهو جوهره الاساسى، وذلك مهما كانت الفكرة المعروضة فيه.. ولكن للأسف فقد بلغ الاسراف فى التهاون عند

بعض ادبائنا، إلى درجة استباح فيها هؤلاء ان يدافعوا عن اللغة العامية، ويؤكدون أنها تصلح اداة جيدة للشعر وللكتابة.

وأنا لا أعـرف فى تواريخ الأدب فى الدنيا كلها قطعة ادبية خلدت على مر الايام وهى مكتوبة بالعامية.. وصحيح أن اللغة العامية قد تكون اقرب إلى نفوس الناس، ولكن ذلك وضع مؤقت، ولن يستمر ذلك طويلا.. وأن استخدام مثل هذه اللغة أشبه مايكون بالمثال عندما ينحت تماثيله من الطين، فهذه التماثيل سرعان ماتزول.. ولذلك نرى أن فن النحت يحرص

على أن يستخدم حجر الجرانيت أو البرونز، أو غير ذلك من المواد التى تضمن لنفسها البقاء.

ونستطيع أن نقول مثل ذلك تماما عن الكتابة.. فلابد للكتابة لكى تدوم أن تنحت فى الجرانيت، وذلك يستدعى اقامة صلب القطعة الادبية من لفظ يمتلك من القوة مايضمن له شيئا من البقاء.

وللأسف. فإننى أعرف بعض مدرسى اللغة العربية فى الجامعة، لايحسنون الالمام بقواعد اللغة وهو يكتبون.. وعلى ذلك فماذا ننتظر إذن من الطالب الذى تعلم على أيدى مثل هؤلاء، إذا

اصبح هذا الطالب اديبا أو شاعرا أو مانحو ذلك؟!

وللاسف ايضا .. إنه كثيرا ماترد إلى بعض الرسائل من شبان يظنون فى أنفسهم القدرة الادبية ويكتبون مايظنون أدبا، ثم يرفعون إلى شكواهم بأنهم مظلومون، لأن الصحف والمجلات تسد أبوابها دونهم، فأضحك وأنا أقرأ أمثال هذه الرسائل، لأننى فى أغلب الاحيان أجد فيها من الاخطاء اللغوية مايزيد عما هو موجود من الصواب، فتأخذنى الدهشة، وأسأل نفسى مستنكرا: كيف يتوقع

إنســــان أن يكون لـه قـــسط مـن الأدب وهـو لايستطيع أن يفرق بين الخطأ وبين الصواب فى اللغة، ولايفرق بين اللفظ المناسب للمعنى وبين اللفظ غير المناسب؟!

ولقد اجتمعت كل هذه الأدوات والمشاكل فى عصرنا الراهن، فنزلت بمستوى الفكر ومستوى الادب.. ولم نعد من جهة نجد الأديب أو الكاتب صاحب الفكرة الأصلية الناقدة، بل نجد الكاتب مرددا للصدى كما شرحت ذلك من قبل.. ومن جهة أخرى فإنه قل ماتتوافر لمثل هذا الأديب أو الكاتب ادوات الكتابة، وهى اللغة

القوية الصحيحة.. فإذا كنا لن نجد الفكر ولن نجد اللغة، فقل على الادب العزاء!

وإذا كان البعض يدعى إننا نعيش الآن فى عصر السرعة، وأن ذلك يؤدى إلى ضرورة أن تتغير لغة التعبير.. وأقول لمثل من يدعى ذلك أن رد الفعل لهذه السرعة، لاينبغى أن يكون لغة خاطئة وفكرا هزيلا.. بل ينبغى أن يكون متعمقا وقارئا للتراث.

أزمة ثقافة!

وإذا كـان هذا هو حـال الابداع فى العـصـر الحاضر.. فيا ترى ماهو حال الثقافة؟

اذا نظرنا إلى قطاع الشبـاب، فإننا سنجد إنه فى أغلبه الاعم يعانى من ضعف فى ثقافته العامة.. والسبب فى ذلك بسيط، فإذا كان من

يعطى فقيرا، فإنه لابد وأن يكون من يتلقى منه وعنه هو الآخر فقيرا.

وفى عصرنا الحاضر هذا ليس لها المكانه الأولى.. إما فى العشرينات والثلاثينيات فقد كانت الاسماء اللامعة جدا مثل الدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهم كثيرين، تحفز الشباب لتقليدها وتتبع خطاها.. إما الآن فإن الاسماء التى تلمع وتغرى الشباب بتقليدها ليست لكتاب أو مفكرين، وإنما هى أسماء تعمل إما بالسياسة أو مايشبه السياسة من نشاط،

وهؤلاء هم الذين يلمعون الآن، وهم الذين تقهرهم الدولة الآن، وهم الذين يكسبون المال الآن، وهم الذين يسكنون القصور الآن، وهم الذين يسافرون إلى الخارج، ويتمتعون برفاهية الحياة!

وأنا لاأطلب من الشاب أن يكون بطلا، لإنه بشر عادى، ولايسعه إلا أن يحاكى الطريق الذى أوصل هؤلاء الناس إلى مثل هذا اللمعان والشهرة.. فإذا كان هذا الطريق هو الاشتغال مثلا بالسياسة، فليشتغل هو أيضا بالسياسة، وإذا كان الطريق هو أن يصفق للحاكم،

فليصفق هو أيضا للحاكم، ولابد له أن يحاكى هؤلاء، لأنه لو نظر حوله ورأى هذا الذى اتعب نفسه فى التفكير والتأليف والابداع، مايزال فى ذيل القافلة، فما الذى سيضطره إلى محاكاته وتقليده والسير فى نفس الطريق الذى سار فيه؟!

وهناك من يقول أن عندنا متخصصون فى ميدان العلوم والدراسات المختلفة، ومنهم من وصل إلى مرتبة عالية، حتى على المستويات العالمية.. ولكن الثقافة والفكر غير ذلك، لأنهما باختصار عبارة عن امتصاص الاتجاهات

العلمية المختلفة فى وجهة نظر، والثقافة والحياة الفكرية هما مانقصده عندما نتحدث عن وجهة النظر تلك.

وعندما نتكلم عن الثقافة، فنحن لانقصد المختص فى الكيمياء أو المختص فى الفيزياء أو المختص فى أى شىء آخر، وإنما نقصد أن هذه الخطوط كلها تتجمع فى بؤرة واحدة، ويمتصها الاديب أو المفكر، وينتج عن هذا الامتصاص الثقافة والحياة الفكرية.

وإذا نظرنا إلى الادب والفكر العالمى.. وتوجهنا نحو «دانتى» مثلا، فإننا نجد أنه لكى

يكتب عمله الرائع «الكوميديا الالهية» والتى وصل بها إلى القمة، كان عليه أن يمتص أولا ثقافة العصور الوسطى، وعندما فعل ذلك، ظهر ذلك العمل العظيم إلى الوجود.

وفى الأدب العربى عندنا «الجاحظ» وقد وصل إلى قمة عالمية عليا فى الادب، لأنه نجح فى امتصاص الثقافة العربية فى حينه بكل تياراتها، سواء منها الوافد من اليونان، أو الوافد من فارس، وكذلك الثقافة العربية الاصيلة وتبلورت كل هذه التيارات فى صدره،

وانتج لنا العديد من المؤلفات العظيمة، ومنها «البخلاء» و «البيان والتبيين» و «حياة الحيوان»

واخيرا .. فإن خلاصة هذا الكلام أن الثقافة والحياة الفكرية، ليست هى تلك الخطوط التخصصية الجامعية الاكاديمية، وإنما هى مايتولد عن هذه الخطوط حين تتفاعل فى حياة واحدة ومناخ واحد لتعطى وجهة نظر إلى العالم والكون والحياة.

الفهرس

مقدمة........................ ٥

الدكتور.. وأنا.................. ٩

الفيلسوف.. فى سطور.......... ١٧

١ ـ أيام فى حياتى.................. ٢١

٢ ـ الفلسفة المظلومة............... ٤٣

٣ ـ أدب الشباب.. وهم............. ٥٩

٤ ـ أزمة فكر وثقافة!................ ٨٥

أزمة ثقافة........................ ١٠٩

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب